من هنا ومن هناك

الحريم في نظر الغرب

إن حياة الحريم في قصور سلاطين آل عثمان لتمثل هذا الضرب من المعيشة الذي تصوره ألف ليلة وليلة، والذي تفنن الكتاب الأوربيون في وصفه ما وسعهم الخيال، ففيها الأجواء المفعمة باللذة وضروب المتع والتسلية المختلفة. ولقد ظل «الحريم» من الأسرار الغامضة التي تتضارب فيها الأفكار، حتى إذا زالت سلطة الخلفاء، وأبيح للجميع أن يدخلوا قصورهم الفخمة، كشف القناع عن الكثير مما كان يجري فيه. ولا شك أن رغبة الغربيين في تعرف أسرار «الحريم» في القصور العثمانية كانت أعظم من أية رغبة أخرى في إدراك أحوال الدولة إبان عهد السلاطين، وكان ذلك مدعاة لأن يكتب الكثيرون — آنا بالحق وآنا بالباطل — حول هذه الناحية، وتنافس الخيال والحقيقة في تصوير الحياة داخل «الحرملك» فكان نتاجهما هذه الكتب التي تطلع علينا بها — بين حين وآخر — دور النشر في الغرب. ومن الكتب القيمة الطريفة حول هذا الموضوع كتاب The Harem الذي وضعه المستشرق الإنجليزي بنزر، وكان ملماً باللغة التركية، عاش في الآستانة ردحاً طويلاً، وخبر الحياة التركية عن كثب. وقد وصف في كتابه هذا حياة القصور، لا سيما قصر سيرالیو الذي كان يسكنه سلاطين آل عثمان من آلاف النسوة اللائي جيء بهن — إما بيعاً أو اقتساراً — ويصف منظر «الخصيان» وهم يرفلون في أزيائهم العجيبة، فلا عجب إذا اجتذب الغربيين هذا الوصف لحياة تكاد تكون من بنات الخيال، بل لقد يقصر الخيال في كثير من الأحيان عن أن يتطاول لبلوغ ما بلغته الحقيقة الماثلة في قصر سيرالیو

يقول مستر بنزر في وصف الحرملك «إنه دنيا صغيرة، محكمة الإدارة، دقيقة السياسة، خلي إلا من النساء اللائي تعيش كل منهن من أجل واجب تؤديه ... والحرملك، وإن كان مجتمع نسوة، إلا أنه كثيراً ما دبرت فيه المكائد، وشهدت جدرانه تدبير دسائس تقشعر لهولها الأبدان، كما كان حظ الكثير من نزيلاته الجيلات القتل بلا رحمة. وكم ضمت أمواج البسفور من فتيات غضب عليهن السلطان فأصبحن طعمة لحيتان البحر وأسماكه» أما الخصيان، فقد أخذ عددهم يزداد كلما اتسعت موارد السلطان. وكانوا في أول الأمر من البيض غير أنه سرعان ما حل محلهم السود لما طبعوا عليه من إخلاص لساداتهم، أما البيض فكانوا أهل دس وغدر وفتنة. ومنذ القرن السادس عشر أصبح الحرملك يدبر أمور الدولة من وراء ستار. ولما نفى السلطان عبد الحميد إلى سلانيك عام ١٩٠٩ م، أذنوا له أن يصطحب معه في منفاه بعض المقربات إليه. أما الباقيات ويجاوزن بضع مئات فقد أصبحن بلا عائل. وقد وصف ذلك كله فرنسيس ماك كلاج في كتابه «سقوط عبد الحميد» فقال: «لقد جمعن في قصر (ثب كابو) في حشد عظيم، وإذ كان أغلب النسوة في حريم السلطان قوقازيات، وكن يؤثرن على غيرهن لجمالهن الرائع، فقد أبرقت الحكومة التركية إلى مختلف القرى القوقازية تعلن إليها أن لكل عائلة الحق في استرداد فتاتها من حريم السلطان سواء أكان أبواها قد باعاها أم اغتصبت من بين ذويها. ومن ثم وفد على القسطنطينية الكثيرون من جبلي القوقاز يخطرون في ثيابهم العجيبة، وحددت لهم الحكومة يوماً توافدوا فيه على قصر (ثب كابو) واستعرضوا محظيات السلطان سافرات بلا قناع. وكم كان منظر الفتيات وهن يرتمين في أحضان آبائهن أو أخواتهن مؤثراً، بعد أن حيل بينهم وبينهم، ويئسن من لقائهن ... فهذا أب يقبل ابنته وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وهذا أخ يعانق أخته بعد أن ظنا أن لا تلاقي بعد. ولشد ما كان التباين عظيما بين لباس هؤلاء الجبليين ولباس بناتهم وهن يرفلن في غالي الثياب وأبهاها. وسرعان ما جمعت كل فتاة ملابسها،

وغادرت القصر غير آسفة عليه ، تسع عددهن يومئذ مائتين وثلاث عشرة أنثى ، أما الباقيات فقد اختار سنهن الأمراء من اختاروا...»

هذا وصف شاهد عيان لمنظر من مناظر ألف ليلة وليلة .

أما قصر سيراليو فقد خيم عليه الصمت كأنما استوحش من ساكنيه ، حتى إذا كان عام ١٩٢٤ جعلته الحكومة التركية من المنافع العامة ، وطبعت من أجله دليلاً يشرح للزائرين ما يهم عليهم إدراكه ، وإذا كان الزائر لمصر لا بد له من مشاهدة الأهرام وأبي الهول ، فإن نزيل القسطنطينية اليوم ليهرع قبل كل شيء إلى قصر سيراليو فيتمثل صورة الحريم والترف في قصور السلاطين ويرى روعة الفن وجلاله ، وكم شهدت حجراته من مآس ومسرات!

النضوج وضبط النفس

إذا نظرنا إلى الطفل وجدناه أكثر من غيره تبرماً بالتعب . فإذا أصابه الجوع أو ناله قليل من البرد أو الحر أو شعر بتقييد حريته فلم يستطع أن يتحرك كما يشاء ، أو اعترته هزة عنيفة بعامل من العوامل ، فهو ولا شك عرضة للهيج

وإذا كان الطفل لا يعرف الأسباب التي تدعو إلى ما يشعر به من الألم ، فإن احتجاجه عليه عادة يكون عنيفاً

فإذا جاوز سن الطفولة وتعداها إلى سن النضوج ، فإن شعوره بهذا الهيج يخف ويتغير . وليس بمعنى ذلك أن الراهق لا يشعر بالآلام إذا تعرض لها ، ولكن شعوره بها يتغير كل كل التغير ، حتى لا يبدو عليه شيء من مظاهرها

فالشخص الذي لا يحتمل المشقات ، ويضيق صدراً إذا لم ينل ما تصبو إليه نفسه ، ويهتاج لكل حادث ، هو في الحقيقة شخص لم يصل شعوره إلى درجة النضوج ؛ وكل إنسان ولا شك يكره أن يكون ذلك الرجل . فإذا أردنا أن نعرف حقيقة أنفسنا من هذه الناحية يجب أن نترك الحكم عليها للآخرين ، وعلى الأخص هؤلاء الذين لا تجمعنا بهم روابط الصداقة

فما مقدار الألم الذي يستطيع أن يحتمله عادة الرجل الكامل النضوج ؟ إن نظرة بسيطة تدلنا على أن هناك اختلافاً كبيراً بين الأفراد من هذه الناحية . فقد رأينا أناساً يحتملون كسر العظام وقطع الأوصال ، ورأينا بعضهم يقومون بإجراء العمليات الجراحية لأنفسهم وسمعنا بأشخاص تقطع أوصالهم إرباً إرباً في بعض المحاكمات ليخونوا صديقاً أو يعترفوا عليه بما يؤذيه فلا يشكون ولا تتغير حالهم

وعلى النقيض من ذلك نرى أناساً لا يطيقون أي نوع من أنواع الألم فيلجأون إلى العقاقير السامة كالكوكايين والمورفين لتخفيف آلامهم وكثيراً ما يعتادونها

فهل هناك حد وسط بين هذين الحدين ؟ هل توجد حالة حالة طبيعية بين هاتين الحالتين ؟ من المحتمل أن لا يوجد شيء من ذلك . وكل ما نستطيع أن نقوله : أن الرجل الصحيح يتجنب الألم بقدر الإمكان ، فإذا ناله شر لا بد منه فيجب عليه أن يتجلد له ويحتمله ، ولا يفعل كما يفعل الطفل ، وقد نستطيع أن نطبق هذا المبدأ على أوجه الحياة المختلفة . فنحن كثيراً ما نفعل أعمالاً لا نريد أن نفعلها ، فبعضنا يرفعون عقيرتهم بالشكوى لأقل شأن ، وبعضنا يتركون العمل الذي يشتغلون فيه بغير مبرر ! فإذا فرضنا أنك أجبرت بحكم عملك على أن تكون مع شخص لا تودّه . فالرجل الناضج في هذه الحالة يحتفظ بشعوره نحو هذا الإنسان ويعامله بشيء من الحذر . أما شعور السرور الذي يتولانا في مجلس من المجالس ، أو عند مشاهدة تمثيل إحدى الروايات ، فقد يثير في نفوسنا شيئاً من الضحك أو الهياج ، وقد لا نستطيع أن نتكتم هذا الشعور ، إلا أنه من الواجب أن لا نشوش به على الآخرين كما يفعل الصبيان ، فسواء كنا في حالة من السرور أو حالة من الألم فالواجب علينا أن نتعلم ضبط النفس وكبت الشعور وإلا كنا غير ناضجين

تجنيد الكلاب في الحروب

تدرب الكلاب في جميع أنحاء العالم للخدمة في الحروب . ففي روسيا أنشئت مدرسة في موسكو للكلاب ، وفي اليابان أعدت أماكن فسيحة لتدريبها منذ ١٩٣٣ ، وقد أعدت ميادين خاصة في بولندا وإيطاليا لتدريب الكلاب على الأعمال الحربية على اختلافها ، وفي أستنيا تلازم الكلاب طلائع الجيش ، أما في فرنسا فهي تدرب مع الجنود في كثير من الميادين .

وتستخدم الكلاب في حمل الرسائل إلى الفرق الطبية ، وفي توصيلها إلى الحرس ، حيث تجتاز الأماكن الوعرة ، وتعبر الأنهار الواسعة لتوصيل رسائلها . وهي تدرك المرضين في الميدان بما يحتاجون لتضميد الجراح ، وهي تستطيع أن تحمل الزاد على ظهورها وتسير بها إلى مسافات بعيدة .

وقد كانت الكلاب تستعمل في الهجوم والدفاع منذ أقدم العصور . ويقول هيرودتس إن « سيرس » كانت لديه كلاب

يستخدمها فى الحروب . وفى كتاب بلوتارك أن الكلاب أنجت كتيبة « كورنيثيه » من الهلاك .

وكان فيليب المقدونى يستخدم الكلاب فى حروب أرجول واستخدمها الرومان لحراسة الجيوش ، وكان « السلت » يدربون الكلاب على مهاجمة الخيل ، فتأخذها بخياشيمها وتسقطها فى ميادين الحروب .

أما فى القرون الوسطى فقد كثر استخدام الكلاب لهذه الأغراض ، وقد كانت الفرق الأسكوتلندية تصطحبها على الدوام وكانت مدينة سان مالو تستخدم الكلاب فى حراسة أسوارها إلى سنة ١٧٧٠ ، وقد اتخذ نابليون الكلاب سنة ١٧٩٩ لحراسة الجنود فى مدينة الأسكندرية . واستخدم الألمان الكلاب لحماية الكتائب وحراسة الأقاليم والمعسكرات فى سنة ١٨٧٠

وفى سنة ١٨٩٥ قام كلبان بإمداد كتيبتين بالذخائر أثناء الحرب على أكمل وجه .

وفى سنة ١٩٠٤ كان الجيش الألمانى يستخدم ٦٠٠ كلب من الكلاب المدربة على الحروب وآلافا من الكلاب الأخرى

أما فرنسا فقد بدأت تجنيد الكلاب فى سنة ١٩١٦ ، وقد اجتمع فى باريس ٩٠٠٠ كلب نظمت فرقا وأرسلت إلى الميادين للتدريب . وقد قامت تلك الكلاب بخدمات عظيمة مما كان ذكره موضع إعجاب المتحدثين .

آلة لقراءة الأفكار

اكتشاف عظيم سيحدث ضجة عظيمة فى العالم ! ذلك هو اختراع آلة لالتقاط الأفكار والخواطر التى تجول بذهن الإنسان ! وليست هذه الآلة كالآلات المصورة التى يعرفها كل إنسان ، ولا حلما من أحلام رجال العلم . إنها مصورة تشتغل فى كل مكان وليس إلا أن يرقد الإنسان على منضدة والآلة تسجل خواطره دون اى ألم أو ارتباك !

وللحصول على هذه المعجزة يكفى أن يكون عندك سلك موصل بآلة كهربائية وفلم نظيف وتحرك آلة تسجيل الخواطر . إنك لا تستطيع عند ذلك أن تخفى أسرار نفسك بحال من الأحوال

قد تكون هناك بعض صعوبات فى تسجيل خواطر بعض الناس ممن يفكرون فى شئون مختلفة فى وقت واحد ، ولكن تلك الآلة تستطيع أن تركز ذهن الإنسان وتستخلص ما تشاء من أفكاره

غير أنك عند تسجيل بعض الأفكار الهامة والمعلومات العلمية العظيمة ، قد تصادفك خطوط مختلفة لعاطفة من العواطف الخاصة مما يستثير الضحك فى بعض الأحيان

ولا يستعصى على هذه الآلة إخضاع بعض العصبيين ومرضى الصرع والشواذ مما ينتظر أن يأتى بأجل الفوائد ، ولا شك أن هذا الاختراع سيفتح أمام العلم باباً لا حد له من التفكير

أى دنيا عجيبة سيلقى بنا فيها هذا الاكتشاف ؟ وكيف تكون ؟ وكيف تصبح حياتنا إذا كانت حتى خواطرنا لم تعد ملكاً لنا فى هذه الحياة ؟ !

لقد مات جيتى وهو يقول : نور ... نور ! أين كانت هذه الآلة لترينا أى نوع من النور كان يريده الشاعر العظيم ؟ أهو نور العبقرية ونور الروح ، أم نور الشموع ؟ !

كان ذلك أمنية بعيدة المنال ...

أما الآن بعد ما توصل العالم الحديث فى اكتشاف أسرار المستحضرات الطبية وقدم لنا عالم الطب باسم لولو تيطن فقد صار فى قدرتك أن تستعيد فوق شبابك المفقود باستعمال هذا المستحضر الجديد لولو تيطن الذى يعمل تحت رقابة مستمرة من معهد الشاسليات الشهير بمدينة برلين . لكى تقف على حقائق المسألة الجنسية يجب أن تطالع كتاب « الحياة الجديدة » الذى يمكنك الحصول عليه مجانا للسيدات الذين يرسلون طوابع بريد الحكومة المصرية ويرسوم ذات قيمة الواحد ٣ مليم للسيدات العربية . أرسل المبلغ طوابع بريد الى جلانهورمين - صندوق بوستة ٢١٠٥ بمصر

ارفضوا كل علبة غير مكتوب عليها : تعبئة خاصة للشرق بجرعة قوية